سورة آل عمران

obeikandl.com

﴿ سورة آل عمران ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ۝٢ ﴾

الذى له الحياة المطلقة الإطلاقية، فهو حىّ فى نفسه أزلاً وأبداً، ومحيٍ لغيره، سبحانه قد وهب الحياة لكل ذرة فى الوجود، فالكون كله حى بسببه، يقول سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

واعلم أيدك الله أنه لا اطلاع لأهل الحجاب على هذه الحياة الباطنية الخفية سوى لبعض أهل المعرفة، ممن كشف لهم عن حياة الجمادات وأفضلهم سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ قال: ((**إننى لأعرف حجراً بظاهر مكة كان يكلمنى قبل أن أبعث**)) ومنهم الشيخ أحمد رضوان ﷺ حكى عن نفسه أنه كان ذات مرة فى الصحراء فقضى حاجته، وأراد أن يستجمر بحجر فلما أمسكه سمعه يسبح فاستحى وألقاه .

﴿ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ ﴾

الذى قام بنفسه وبالأشياء كليةً، ولم يقم به شىء سبحانه، يقول سبحانه عن هذا القيام: ﴿ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾.

ويقول سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ ﴾

أى هو صاحب الاطلاع الكلى والعلم الأصلى، الذى ينتهى عنده كل علم، ومحوج إليه كل عليم، سبحانه لم يأخذ علمه عن أحد،وأخذه عنه

كل أحد، انتهت عنده الأحداث، وتلاشت عنده المعانى، وتضاءلت فيه المعلومات.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

وبسبب هذه الآية تأدب أهل الله مع أصحاب الصور القبيحة والناقصة، لكونهم لا دخل لهم فيما خلفهم الله فيه من تلك الصور، فإنه سبحانه هو الذى يصور الحدث فى الأرحام كيف يشاء، فكيف يعترض الكامل على خلق الله، يقول سبحانه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾.

ولهذا غضب رسول الله ﷺ من عائشة رضى الله عنها لما وصفت السيد صفية بنت حيى بأنها قصيرة وزجرها.

وذلك لأنها لم تنظر إلى الفاعل الأصلى لعين الحدث، ونظرت إلى الحدث نفسه وكأنه هو الذى أنشأ نفسه، وسوى ذاته فى القصر فافهم.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ ﴿٧﴾ ﴾

اعلم أيدك الله بنوره أن المحكم من آيات الكتاب هو الذى لم يلحقه النقض الإلهى، ولذلك كانت تلك الآيات المحكمات هن أم الكتاب، أى الآيات العلمية النافذة القاطعة التى لا تنقض ولا يوجد من العلم ما ينقضها.

وأما الآيات المتشابهات، فهى ما أشكل ظاهرها وباطنها، واحتملت من المعانى عدة أوجه فى علمى الظاهر والباطن، وقد يلحق كل ذلك

النقض الإلهى، فليس كل المتشابه هو فى أم الكتاب .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴿٧﴾ ﴾"

يحكى الحق سبحانه عن أصحاب الزيغ والحجاب العرفانى، الذين منعهم الحق من الاطلاع على أسرار المتشابه، فابتغوا فتنة أهل الإيمان بتأويل كاذب للمتشابه من التنزيل، ومن هؤلاء طوائف كثيرة منهم المعتزلة والقدرية والجهمية وبعض فرق الشيعة .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴿٧﴾ ﴾

لكونه كلامه هو سبحانه، وصاحب الكلام أدرى به من غيره، وقد يطلع سبحانه عليه من ارتضى من عباده المقربين، يقول سبحانه : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾.

﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

وهم أهل العجز الذين تكلمنا عليهم فى كتابنا الكبير "تكملة الفتوحات المكية "، قد أوقفتهم القدرة عاجزين أمام المتشابه، فردوا حكمه إلى حضرة الحق سبحانه، وهؤلاء هم الذين تبرأوا مما علمهم الله من علوم المتشابه، لتحققهم من أن ما يخفيه الحق عنهم أعظم وأكبر، فوقفوا متأدبين عاجزين عن كل تأويل .

وأحكى لك بعض أقوالهم فى قوله سبحانه: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾

فاعلم أن مذهب السلف عدم التأويل، وهم أكثر أدباً من غيرهم مع الحق عز وجل .

واعلم أن مذهب الخلف هو التأويل، وهو أسلم مع حفظ الأدب التام له سبحانه، فالأشاعرة أولوا وقالوا لو قلنا: ويبقى وجه ربك لاختفى الجسم كله ولم يبق منه سوى الوجه فقط، وهو قول فاسد مما لا شك فيه، وإنما المقصود من العبارة الإلهية أنه يذهب الكل ولا يبقى سوى الحق سبحانه والوجه أتم فى التعبير عن البقاء الإلهى، فكأنه ناب عن الحق سبحانه فى بقائه، كما تقول فلان له يدٌ عندى، فالجزء يعبر عن الكل ، ولا جزء أصلاً فى التعبير عن الجناب الإلهى الجليل ، وإنما قصور اللغة هو الذى ألجأ إلى التعبير عن الحق بالتشبيه ، وإلا لما عرفناه كما قال الشيخ الأكبر ﷺ، فلابد من التشبيه والتنزيه معاً.

وأما الواقفون من ساداتنا السلف عند العبارة اللفظية بدون تأويل ، رفضاً من إخراجها من قالبها الشبهى إلى قالبها التأويلى، فكان هؤلاء أتم أدباً مع الحق سبحانه، وأكثر علماً به، فإنهم تحققوا من أنهم مهما أولوا الصفة فلن يقعوا على مقصودها الأصلى، فوقفوا متأدبين مع اللفظ، بدون حمله على الشبه الذى عرفناه، فقالوا هو كما ورد ــ الوجه واليد والجنب ــ لكن ليس كما عرفناه فى عالم التشبيه العقلى المقاس بوجهنا ويدنا وجنبا، وإلا لجعلناه سبحانه جسماً .

ولذلك لما سُئل مالك ﷺ عن آية الاستواء قال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وأمر بإخراج السائل .

فأعلمنا أن الاستواء الحسى معلوم، وهو بخلاف الاستواء الإلهى فإنه مجهول، فلا يقاس هذا بهذا، وإلا لما التقيا .

فالمتأول لم يأول فى حقيقة القصد، وإنما نزه الحق، وإلا فأين

التأويل ؟ ، إنه بلا شك هو وهم لا علاقة له بتأويل يكشف المجال عن حيرة المتأول فى الوصول إلى الحقيقة الإلهية.

فأنت أيها الآنية الضعيفة كيف تعرفه إلا بإشارة شبهية تشير إليه لغتك، وإلا فبلا إشارة لا تعرفه، فلن تنزه حتى تشبه.

واعلم رحمك الله أن للسادة العارفين عقيدة لا يطلع عليها غيرهم، ولا يعرفها سواهم، فالأشعرى والماتريدى هما تلميذ الصوفى فى معرفة الله، فالعارف لا يأخذ معرفته بربه من الكتب والورق ولا يتلقاها من ميت، ولا يأخذها إلا عن حى أخذها عن حى، ولذلك قال الشيخ الأكبر فى مقدمه الفتوحات: أما عقيدة خواص الخواص فلا سبيل لمعرفتها لأهل الحجاب والظاهر.

واعلم أن نهاية المعرفة هى الحيرة، ولذلك قال سيد الأولين والآخرين ﷺ: لا أحصى ثناء عليك بل أنت كما أثنيت على نفسك، وروى الشيخ الأكبر فى الفتوحات حديثاً ليس له صحته عند أهل الظاهر وهو قوله ﷺ : ((**اللهم زدنى فيك تحيراً**)). ويقول ساداتنا العارفين : العجز عن درك الإدراك إدراك .

يقول سيدى عمر بن الفارض ﷺ :

زدنى بفرط الحب فيك تحيراً ... وارحم حشاً بلفظ هواك تسعرا

وإذا اسألتك أن أراك حقيقة ... فاسمح ولا تجعل جوابك لن ترى

يا قلب أنت وعدتنى فى حبهم ... صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا

إن الغرام هو الحياة فمت به ... صباً فحقك أن تموت و تعذرا

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سر أرق من النسيم إذا سرى

ويقول السهروردى المقتول:

أبـداً تحـن إليكـم الأرواح ووصالكم ريحانهـا و الـراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكـم وإلى لذيـذ لقائكـم ترتـاح
وارحمتا للعاشقيـن تكلفـوا ستر المحبة و الهوى فضـاح
وإذا هم كتموا تحدث عنهـم عند الوشاة المدمع السفـاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهـم و كذا دماء العاشقيـن تبـاح
وبدت شواهد للسقام عليهـم فيها لمشكل أمرهـم إيضـاح

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

فلا تغرركم قوة فرعون ونمروذ وعاد وثمود وقيصر وكسرى وأمريكا وأوروبا، وما ملكوه من العتاد ومظاهر القوة، فكل ذلك هو وقودهم فى النار، ولن يغنى عنهم من وصول يد الحق إليهم بالزوال والاختفاء، فإن مظاهر العدم زائلة وبائدة، وهى مظاهر تنقلية لا تبقى على صفة واحدة، فالقوى سينخفض، والمنخفض سيرتفع، فهو سبحانه كل يوم هو فى شأن، يرفع أقواماً ويخفض آخرين.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

الخطاب موجه للجبابرة من الكفار المتغطرسين وهو خطاب للقدماء والمعاصرين ــ أمثال أمريكا وأوروبا واليهود الحاليين ــ وإن شاء الله سيحرقهم الحق تعالى بأسلحتهم النووية فى الدنيا والآخرة، وهو

وعد صادق منه سبحانه، وقد تكلمنا عليه بتوسع فى كتابنا تكملة الفتوحات المكية ــ ضمن علامات الساعة ــ .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

الخطاب موجه لمن ظلت فيهم بقية من هذا التزيين، سواء من الحسيين أومن أهل المعرفة، فقد تبقى فى الرجل من أهل المعرفة بقية كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾

وأما الذاتيون فلا علاقة لهم بدنيا ولا آخرة، قد شغلهم المحبوب عن التعلق بالعدم الرذيل، وعن عشق الطين المنحط .

يقول الحلاج ﷺ: ما نظرت إلى شىء إلا ووجدت الله فيه.

يقول أبو يزيد ﷺ: لم يبق فى أبى يزيد شىء من أبى يزيد .

ويقول الشبلى قدس سره: اللهم إن كان بقى فىَّ شىءٌ من بقية فعذبنى بذل الحجاب.

ويقول حافظ شيرازى فى ديوانه :

فى السوق وفى الصومعة ما رأيت غير الله

فى السهل فى الجبل ما رأيت غير الله

كثيراً ما أبصرته بجوارى فى المحنة

فى السراء والضراء ما رأيت غير الله

فى الصلاة والصوم وفى التأمل والذكر

وفى دين الرسول ما رأيت غير الله

لا روح ولا جـــــسد ولا عـــــرض ولا جـــــوهر

ولا أســـباب ولا مـــسببات مـــا رأيـــت غيـــر الله

ويقول سلطان العارفين سيدى محمد بن الفارض ﷺ :

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

وتقول السيدة العاقلة الحكيمة رابعة العدوية رضي الله عنها:

فليتك تحلو والحيـــاة مريـــرة وليتك ترضى والأنام غضاب

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴿١٨﴾ ﴾

فهو سبحانه من شهد لنفسه بالفردانية والألوهية، وهو سبحانه خيـــر من وحد نفسه، ولنا كتاب فى هذا الباب سميناه:" كتاب ســـر إيمـــان الحق بنفسه "، وهو مطبوع ضمن كتاب إحياء علوم الصوفية، وقـــد أسهبنا فيه فى هذا الموضوع .

فهو سبحانه من شهد لنفسه بالفردانيةوالألوهيةشهادة لا يعرفها سواه، ولم يعرفها له أحد غيره، ثم اخترع من الحدث خلقـــا شـــهدوا معـــه كالملائكة وأولى العلم، فالحدث شهيد معـــه علـــى كمالـــه المطلـــق وفردانيته وألوهيته .

واعلم أن هذه الشهادة لا تتجلى فى وقت مثلما تتجلاه عندما يـــذهب الكل ويفنى الوجود ويطوى الحق سبحانه السموات بيمينـــه ويجعـــل الأرض فى قبضته الأخرى وكلتا يديه يمين ولا يبقى سواه، فينطـق الحق سبحانه بتلك الشهادة قائلاً:" **أنا الملك فأين ملـــوك الأرض أنـــا**

الجبار فأين الجبابرة ".

.واعلم أن وسعه سبحانه الشهودى حيث أنه كان أكبر شهادة من الكل، يقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾.

فالحق سبحانه هو البارئ الأعظم والمنشئ الأكبر شهد خلق العالم الأول، حيث لم يكن أحد معه ليشهد وليحضر ذلك الخلق الأول الذى ذرأه وبرأه، يقول ﷺ: **((كان الله ولا شيء معه))** أى لم يكن معه شيء ليحضر تلك الشهادة، وليشاركه فى ذلك الشهود، فهو سبحانه الشهيد الأعظم على ما ذرأ و برأ واخترع فافهم.

ثم وسم ووصف حبيبه الأكرم سيدنا محمداً ﷺ بوصف الشهادة الكبرى وأشركه معه فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

فإن النوع الأول أقصد آدم عليه السلام لما ذرأه الله وجد مكتوباً على ساق العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم أخبرتنا الحقيقة المحمدية عن تقدم شهادتها الأصلية على الكل، فقال ﷺ:

((كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد)).

فاستحق ﷺ تقدمه على الكل فى المعرفة الإلهية وفى الشهادة القديمة الأصلية، حيث قيل فى عالم البدء الأول: **((إنى أريد أن أخلق العالم من أجلك يا محمد))**

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٨﴾ ﴾

فدين الله واحد من آدم حتى محمد ﷺ ،فكل الأنبياء هم مسلمون.

واعلم أرشدك الله أنه لو تعددت الأديان الإلهية، لدل ذلك على عدم وحدانيته سبحانه وتعالى، فالدين هو التوحيد الإلهى لا غير وما أرسل الأنبياء إلى أممهم إلا بكلمة واحدة، ألا وهى لا إله إلا الله، فالحق عدد الأنبياء فى الإرسال لكى يجدد الحديث رسالة سلفه فى دعوة النـــاس إلى وحدانية الخالق، ونهيهم عن تعدد الآلهة، فالكل متصل فى ســـلك واحد لا ينفرط ولا ينقطع فافهم.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

إرجاع للكل إلى الفاعل الأصلى فى الكون، فهو الواهب الحقيقـــى وهو النازع الحقيقى، وهو المعز الحقيقى، وهو المذل الحقيقى، فمـــن أراد ملكاً عن غير طريقه فقد ذل، ومن أراد عزاً عند سواه خسف به، ومن ابتغى خيراً عند غيره لم ينله سوى الفقر، وذلك لكونه قصد غير العين الإلهية.

فالكل مستقون من العين الإلهية، سواء رضوا أم أبـــوا، وإلا فمـــن يرزق الكافر ويطعمه ؟ هذا وإن عبدوا غيره وكفروا بـــه وبـــارزوه بالمعاصى، يقول الله فى الحديث القدسى: ((**أخلـــق ويعبـــد غيـــرى وأرزق ويشكر سواى**)).

ومن هنا لم تهن كرامة الملوك سوى عند العلماء العارفين بـربهم، وذلك لكونهم أعلم الناس بالله سبحانه، وقد بعث الخليقة إلى مالـك ﷺ لكى يعلمه العلم فقال له: العلم يؤتى إليه ولا يأتى إلى أحـد، فجـاءه وتعلم على يديه.

وبعث أمير بخارى إلى الإمام البخارى ﷺ لكـى يأتيـه ويحدثـه، فرفض الإمام البخارى أن يأتيه ويحدثه وقـال: والله لا أذل حـديث رسول الله ﷺ، فإن العلم يؤتى إليه ولا يأتى هو إلى أحد، فناصبه ذلك الأمير العداء.

ويقول سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ : نحن فى لذة لو علمها الملـوك لقاتلونا عليها بالسيوف.

عبيد ونحن الملوك عبيدهـم وعبدهم أضحى له الكون خادمـا

﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ ﴾

اعلم أن علم الإيلاج والإخراج هو علم إلهى شريف، بـه يخلـص الحق سبحانه الأجسام من بعضها البعض، وبه يخرجها.

أقول: وهو من صفات الأجسام وخواصها، غيـر منطبـق علـى الربوبية، وهذا كمن ظن أن النزول الإلهى هو نزول حقيقـى، كمـا حكى عن ابن تيمية ــ حكاه عنه ابن بطوطة فى رحلته ــ أنـه كـان يتكلم على منبر بدمشق فقال: ينزل الله فى الثلث الأخير من الليل، ثم قال: كنزولى هذا ونزل من على المنبر.

فهؤلاء أصحاب الأوهام والتوهمات الظانين أن صفات الأجسام تنطبق على أوصاف الربوبية قد أساءوا الأدب مع الحضرة الإلهية .

وبهذا السر خلص الحق سبحانه السموات من والأرض، يقول سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾،وبهذا السر خلص الحق سبحانه الجنين من بطن أمه، وبهذا السر خلص الحق سبحانه النور من الظلمات وخلص الظلمات من النور، وبهذا السر خلص الحق سبحانه الليل من النهار وخلص النهار من الليل، يقول سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴿٢٨﴾ ﴾

وهو خطاب لمن أحبه، وإلا فإن من سقطوا من عينه لا يستحقوا تحذيره، بخلاف أحبابه فإن سبحانه يكثر من تحذيرهم ولذلك قال ﷺ واصفاً الطائفة التى سقطت من عين الله ــ ولا تستحق تحذير الحق لها ــ: ((**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**)).

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴿٢٩﴾ ﴾

إرجاع لأهل المعرفة إلى حلبة المراقبة له سبحانه، فإذا تحققوا من أنه سبحانه وتعالى بهذه الكيفية الإحاطية فى العلم بما يخفوه وبما يبدوه استحوا منه وراقبوه حق المراقبة .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴿٣١﴾ ﴾

أى اقتدوا بى ظاهراً وباطناً، ومن لم يربط بين الظاهر والباطن فلا تصح قدوته به ﷺ، فمن اقتدى به ظاهراً وهجر الاقتداء الباطنى به ﷺ فقد كذب على الله وأعظم الفرية، ولهذا أخفق من الوهابية المنكرون على علماء الباطن وتزكية النفس، حيث اعتنوا بظاهر الدين وهجروا

باطنه.

واعلم أن نتاج الصالحين فى الاقتداء به وتعشقه ﷺ أن اجتمعوا به يقظة، وصاروا يشاورونه فى كل ما يشغل بالهم ويعترض طريقهم، وقد كان سيدى أحمد التجانى ﷺ لا يفعل شيئاً جَل أو دق إلا بمشورته ﷺ وقد كان سيدى محمد أبو المواهب الشاذلى ﷺ كثيراً ما يرى النبى ﷺ يقظة ويشاوره في كل شيء، بحيث لا يفعل أى فعل إلا بمشورته ﷺ، وفى ذات مرة رآه ﷺ فقال له: يا محمد لا تضجر من كثرة رؤيتك لى فإن كثيراً ماتوا بحسرتهم لأجل هذه الرؤية.

وقد كان من أقطاب الاقتداء به ﷺ سيدنا عبد الله بن عمر، كان يتفقد مواضع أقدامه فى الطرقات ويقول: عسى أن تأتى قدم على قدم.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

لعدم تدنسها فى الأصلاب، فالنور الإلهى متواصل فيها غير منقطع، ولذلك قال ﷺ: ((أنا خيار من خيار من خيار))

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

من عيوب الطينة، ومن رق الأغيار، ومن علل الأكوان.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

واعلم أن عصمته ﷺ من الشيطان، أعلى من عصمة عيسى عليه

السلام والناظر ما حدث لعيسى عليه السلام فى شأن الصلب، يعلم تحققاً كيف سعى الشيطان بأهل زمانه حتى سعوا فى صلبه، وأما نبينا محمد ﷺ فقد قال له ربه: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو ما لم يقال لأحد سواه من الأنبياء.

واعلم أن الأنبياء اشتركوا معه ﷺ فى العصمة من الكيد الشيطانى وذلك فى عصمتهم من الوقوع فى الذنوب والهفوات والخواطر السيئة، فكلهم مشتركون معه ﷺ فى ذلك.

وهذا هو النوع الأول.

وأما النوع الثانى: فكان له هو وحده ﷺ ، حيث قيل من حضرة الله بلسان الفردانية: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهى عصمة لم يشترك معه فيها أحد من الأنبياء.

وأما النوع الثالث: وهى العصمة من التشدق والتقول على الأنبياء والدس عليهم وتكذيبهم وتحريش الشيطان للناس ضدهم بالفتن والقلاقل، وهذه هى العصمة المنزوعة منهم، فقد شاركهم الحق فى هذا النزع، فسبحانه يتشدق فيه ويدس عليه ويكذب فى حقه، ويحرض الشيطان الناس للكفر والإشراك به، يقول سبحانه فى الحديث القدسى: **((أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر سواى))**.

واعلم أن أهل المعرفة خير من يتخلق بأخلاق الله عز وجل فى تحمل أذى الخلق، وإلا لما سمى الحق نفسه الصبور، فالعارف الحق هو خير من يتصبر على تشدق الناس وكذبهم، ولا يطلب من الله فى ذلك العصمة، وإلا لأصبح غير مشارك للحق سبحانه فى التخلق بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

احتج أهل الخرقة بهذه الآية فى إثبات كرامات الأولياء كما قال العلماء من أن زكريا كان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء، وقد أعطى الحق سبحانه هذه الكرامة لبعض أولياء أمة سيدنا محمد ﷺ، حكى ذلك عن الحلاج ﷺ أنه كان يأتى بالفاكهة فى غير وقتها، كما قرأت ذلك فى كتاب أخبار الحلاج.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى هنالك لما رأى زكريا هذه الخوارق الحاصلة للسيدة مريم عليها السلام من قبل الحضرة الإلهية، تعشم فى حضرة ربه أن يدعو مثلها بما ينقصه فتحدث له مثل هذه الخارقة التى وقعت للسيدة العذراء.

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴿٣٩﴾ ﴾

قلت فيه فضل القيام فى المحراب، فإن الحق سبحانه أكرم السيدة العذراء من قبل بالكرامات فى المحراب فقال: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾، وها هو الآن سبحانه يكرم زكريا أيضاً فى المحراب بنداء الملائكة له أن الله يبشره بيحيى مصدقاً بكلمة من الله.

﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

السيد فى مصطلاح أهل المعرفة الذي ملك نفسه ولم يملكه شيء، فإنه لم يكن سيداً إلا عندما تحرر من رق الأخوان ومن عبث الاغيار .

والحصور هو الذى لا يخالط النساء، وهو مذهب بعض أقطاب هذه أمة ممن لم يتزوجوا وينكحوا، كأبى يزيد وسيدى أحمد البدوى والشيخ إبراهيم المتبولى رضي الله تعالى عن هؤلاء الأقطاب وهو ليس بمذهب الكمل، فإن الكمل لهم قدوة به ﷺ فى النكاح، وكان ممن عاصرنا من الأقطاب الذين لم يتزوجوا الشيخ حسن الملطاوى ﷺ، الذى سُئِلَ لماذا لم يتزوج ؟

فقال: لم أجد المرأة التى تعيننى على طاعة الله تعالى .

وسُئِلَ أحد الصوفية: لماذا لا تتزوج ؟

فقال: الصبر عنهن أيسر من الصبر عليهن .

وسُئِلَ أحد الصوفية: لماذا لم تتزوج ؟

فقال:لى نفس لو استطعت تطليقها لطلقتها فكيف أضم إليها أخرى ؟

وذكر أبو يزيد أمام الشيخ عبد القادر الجيلانى ﷺ .

فقال: فقته بشيئين :

الشيء الأول: بانتسابى إلى رسول الله ﷺ .

والشيء الثانى: مات عازباً وقد تزوجت .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ما خلا السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها فإنها مستثناة من هذا التفضيل العام، فإن نسله ﷺ لا يتفوق عليه نسل، فإنه فى يوم القيامة كل نسب يزول سوى نسبه الشريف ﷺ .

يا معشر الهادى لنا وذويـــــه عنا الحديث مسلسلاً نرويـــه
جســد تحكـم حب طــه فيــه تاللــه إن الأرض لا تبليـــــه

فلا يعلو آل بتيه الأطهار ﷺ أحد كان من كان من الخلق، يقول ﷺ: ((**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**)) فهذا السيد الشريف ﷺ لا يخرج منــه إلا من يسود الوجود بأسره، فيكون هو السيد وغيره المسود.

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

اعلم أن عيسى بن مريم عليه السلام ما أخرج هذه الآيات للخلق إلا بسر كن الموهوب إليه من حضرة الوهب، وبهذا السر أحيا الشيخ عبد القادر الجيلانى ﷺ الدجاجة التى كانت بين يديه، وليس هذا بمستغرب ولا موضوع على الصوفية، ومن أراد أن يزداد يقينه فليطالع كتــاب الحافظ ابن أبى الدنيا المسمى من عاش بعد الموت، يرى فيه عجائب محكية عن السلف الصالح.

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قد تكلمنا فى كتابنا تكملة الفتوحات المكية كثيراً على المكر الإلهى بالتفصيل المسهب فليراجع.

واعلم أيدك الله أن مكره علميٌ إحاطيٌ، فكيف بهذا العقل القاصــر

فى علمه وإحاطته يريد أن يمكر بالخالق سبحانه .

واعلم أن أولياء المكر الإلهى هم الأقطاب المتخلقون به سبحانه ولذلك قال العارفون: إذا رأيت الولى يضحك فاحذره، فربما باسطك من باب المكر الإلهى، ولسان هؤلاء يقول: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾

متوفيك فى الظاهر فقط لعقد اختبار لمن حولك ماذا يقولون فيك؟ وكان عليه السلام من أقطاب المكر الإلهى، فكم كفروا بسببه ، وكم فتنوا به، ومن هؤلاء أقطاب آل البيت ورأسهم الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه،افتتن به بعض فرق الشيعة حتى جعلوه إلهاً، وبعضهم فضله على حضرة النبى الأكرم ﷺ ، وهو من أهم أقطاب المكر الإلهى، وبعضهم فضله على كل أصحاب النبى ﷺ .

﴿ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

رافعك من وطن الغربة إلى وطنك الحقيقى، وحيث تحرر الروح مما أثقلها فى العالم الأرضى من تكاليف الرسالة وأعباء دعوة الخلق إلى مجاورة الحق فى حظيرة القدس .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

واعلم أنه بغض النظر عن الترابية، فإن خلق آدم عليه السلام كان أصعب من خلق عيسى عليه وذلك لكون عيسى له أب وأم،

وأما آدم فلا والدين له يعرفان، فمن أولى بالألوهية هل تـراه آدم أم عيسى ؟

﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أى الكل معترف بألوهيته سواء المؤمن أو الكافر، فالمؤمن أسـلم طوعاً وشأنه معلوم فى إسلامه، إقراراً فعلياً باللسان والقلب والعمـل، وأما الكافر فإسلامه مجهول لنا، ولكن تنفيذ جوارحه لحكـم الله فيـه إكراهاً له هو عين إسلامه واستسلامه للواحد الأحد، ثم إن أعـضاءه تقول له إذا أصبح: اتق الله فينا، كما ورد بذلك الحديث الشريف، وهذا نهاية اعتراف هذه الأعضاء المكونة لجسد الكافر بألوهية من خلقهـا، ثم إن نهاية إسلام هذه الأعضاء عندما تخذل صاحبها يـوم القيامـة وتنطق ضده شاهدة، وهذا هو عين الانقيـاد والإسـلام والاستـسلام للخالق الأعظم، يقول سبحانه واصفا قمة العبادة الكونية له: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾.

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

أى لن تتقربوا إلى الحضرة الإلهية وتدخلوها، إلا بتنازلكم لله عمـا أحببتموه وعشقتموه من الحظوظ والأعراض والأغراض، فهذا حضرة الصديق ﷺ جاء بكل ماله إلى رسول الله ﷺ، وهـو نهايـة الإيثـار والتنازل عن حظه الدنيوى.

واعلم أن الحق سبحانه لا يدع العارف يفرح بشىء من متاع الدنيا، سوى فرحه به هو سبحانه.

واعلم أيدك الله أننى لا أتذكر طيلة عمرى أننى اشتريت ملبوساً جديداً، إلا وينقطع منه شىء فى أوله، كأن يطوله مسمار فينقطع، أو يقع عليه زيت أو بقع لا تضيع منه، وهذا يفعله سبحانه مع أحبابه لكى تذهب فرحتهم بغيره، وتبقى فرحتهم به هو وحده .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

أى اتقوا الله عز وجل تقوى تحققها كل ذرة فيكم وكل عرق ينبض فى جسدكم، فلو قيل لأحدكم غداً القيامة لما استطاع أن يقدم تقوى لمولاه أكثر مما هو يقدمها له الآن .

﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴿١٠٦﴾ ﴾

يوم تبيض وجوه من نور المعرفة وشرف اتباع النبى الأمى ﷺ وتسود وجوه من كثافة الحجب وشدة ظلام الذوات ومن عدم اتباع ذلك النبى الأمى ﷺ، يقول سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴾.

﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾ ﴾

ولا زلتم خير أمة أخرجت للناس، وإنما ابتدأ الكلام بقوله كنتم لأن التفضيل حدث لهذه الأمة منذ عالم الأزل الأول فافهم .

﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

يصف الحق سبحانه وتعالى ههنا الطائفة التى اتبعت وآمنت بالنبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى كتبهم وموسوماً عندهم فى صحفهم.

فمنهم من اتبعه وآمن به ظاهراً، ومنهم من آمن به واتبعه سراً، وقد وصفهم الحق سبحانه فى سورة المائدة فقال: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾

أى هجرت راحتك فى أهلك وبيتك لأجل أن تعلم أصحابك وتنزلهم فى منازل للقتال الباطنى ضد العدو الحقيقى، وهو النفس والشيطان وقطع دابر الهوى، وإلا لما قيل: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فهل يا ترى أيهما أهم الجهاد الأصغر أم الجهاد الأكبر ؟

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

فقف مع أحكام التقدير،واترك التدبير، ولا تطلب غيره.

﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

اعلم أيدك الله أن (أو) متروكة فى التقدير والاختبار للحضرة الإلهية، فهو سبحانه يفعل كذا (أو) يفعل كذا، وفى كل (أو) يتقطع قلبه ﷺ ماذا سيفعل بهم ؟ وذلك لرقته الزائدة ﷺ ولرحمته الجامعة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

أى لا ترابى أيها الطين الأحمق فى ملك الله، وتطلب عين الكثرة من باب الحرمة، بل اقصد بابه متذللاً مفتقراً إليه وحده يعطيك تلك الكثرة التى طلبتها من خزائن جوده ومن معادن فضله سبحانه.

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

الخطاب عام للكل فى الاستباق إلى الحضرة الإلهية من باب المغفرة العامة، يقول ﷺ: ((**إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة**)).

وفى رواية سبعين مرة، وهل مثله ﷺ محتاج إلى استغفار؟ ولكنه استغفار الأكابر الذى يجل أن يصفه أمثالنا من المقصرين المذنبين.

﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

الخطاب موجه للهمم العالية ذات المعادن الثمينة،بأن لا تهن وهى فى حلبة السباق فيضعف قهرها للأكوان، فتخلد إلى الأرض.

﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ ﴿١٤٠﴾ ﴾

أى لستم بأول المبتلين ولا بآخرهم، وأشار سبحانه إلى من سبق لهم الابتلاء من أهل البلاء بلفظ " القوم "، وذلك لأن هؤلاء هم القوم

الحقيقيون وغيرهم لا .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴿١٤٠﴾ ﴾

اعلم رحمك الله أن علم المداولة هو علم إلهى شريف، تعطى فيه كل عين حظها من السيادة، فتصبح من كانت سيدة مسودة، وتصبح من كانت مسودة سيدة، ولا فرق فى قانون المداولة بين مسلم وكافر، فالكل آخذ نصيبه وحظه فى السيادة، يقول سبحانه: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾، وها هى الآن المسيحية تسود العالم بعد أن ساد الإسلام أكثر من اثنتى عشر قرناً من الزمان، لقد ذهبت سيادة الإسلام على العالم بتفكك دولة سلاطين آل عثمان، ولله فى خلقه شؤون، هو وحده يعلمها، ولن تنكشف سيادة النصارى واليهود للعالم إلا بمجئ مهدى آخر الزمان ونزول ابن مريم عليه السلام .

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

أى يغربل أهل الإيمان، بأن تقام محكمة إلهية ابتلائية للامتحانات والاختبارات، فيرى فيها الحق سبحانه صدق الصادق وكذب الكاذب.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

أى أن ثمن الجنة هو جهاد النفس والصبر فى سبيل الله، فإنه بالجهاد الأكبر للنفس تتفتق الحجب العلوية، ولابد من مداومة الصبر على هذا الجهاد الذى يخرج بالنفس فى عوالم القدس ويكشف حجاب الظلمات النفسية .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

نقلهم الحق سبحانه وتعالى ههنا من حب الحدث إلى حب المُحـدث، وبهذا نطق لسان الصديق الأكبر مولانا أبى بكر ﷺ لما قال الفاروق عمر ﷺ: والله من قال إن رسول الله ﷺ مات ضربت عنقه بالسيف، فقص عليه الصديق ﷺ الآية وتلاها عليه فى أذنه، فقال: لكأنى والله أسمعها أول مرة، فرقاه بهذا السماع ونقله من مقام إلى مقام .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

أى اقتدوا بمن سبق من الربانيين الذين نصروا أنبياءهم فى نـصرة هذا النبى الأمى الخاتم ﷺ ، فإن نصرته ﷺ أمان لأهل هذا الزمـان من التبديل، ولنا كتاب ظريف وهو مطبوع فى هذا الباب سـميناه: " تفضيل حب النبى العدنان على حب الأهل والخلان"، واعلم أن مـن توانى فى نصرته ﷺ ناله الخذلان والهوان .

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

أى سنلقى فى قلوب الذين كفروا أثقال القهر الإلهى، وجبال البطش والجلال التى ستلاحقهم بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وذلك لكونهم اختاروا الجهل بالله بدلاً من المعرفة به.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴿١٥٩﴾ ﴾

أى بسبب انطباع تجليات الرحمة الإلهية فى ذاتك لنت لهم، وذلك لأنك الإنسان الكامل المتخلق بآثار رحمته سبحانه، ولذلك نعتك بأنك رؤوف رحيم.

واعلم أنه ﷻ له من الوسع الرحموتى ما يتجلى به الحق سبحانه عليه يوم القيامة، فيرحم الحق سبحانه به الخلق ويشفعه فيهم ويلجأ إليه الأنبياء فى ذلك الموقف العصيب فيقول: أنا لها أنا لها وهذه الصفة الرحموتية فى الوسع لم تكن إلا له هو وحده ﷻ إراثة ربانية عن الحق سبحانه، لأنه ﷻ خير من تخلق بأسمائه وصفاته.

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

أى أنت القطب المجمع لهم من حولك، والذين يدورون حول ذاتك، فى فلكك، فأنت المغناطيس الجاذب، وكهرباء السلك الموجب والسالب.

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴿١٥٩﴾ ﴾

أى برغم تأخرهم عنك فى المرتبة والمقام ــ طلب الحق سبحانه منك أن تعفو عنهم وتستغفر لهم ــ إلا أنه سبحانه طلب منك أن تشاورهم فى الأمر، اعتناء منه بهم لأجلك، فأنت الذى اختارك الله لكى تعفو عنهم، وتستغفر لهم، نيابة إطلاقية من الحق نافذة الوجوب

لا ترد.

وهو من باب مشاورة الأعلى للأدنى، ومشاورة الشيخ للمريد، وهو مذهب إلهى خفى فيه إلفات لأهمية الأقل، ووجوب حقه على من هو أعلى منه.

فقد كان ﷺ يشاور أصحابه فى شؤون كثيرة، برغم انكشاف حجابه على الملأ الأعلى وتحققه من علوم اللوح الأعلى، إلا أنه أدب نبوى بأهمية الفرد فى الإسلام.

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

أى فإذا عزمت من باب الاطلاع اليقينى، وذلك لكون عزم الأكابر كالأنبياء والأولياء لا يكون ظنياً بل هو يقينى قطعى، لا يدخله شك فافهم، فإذا تجمع لك هذا العزم القطعى فحينذاك توكل على مولاك حق التوكل.

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴿١٦٠﴾ ﴾

أى إذا أحاطك بجنود إمدادته، وأتحفك بعنايات إسعافاته، فأنت حينذاك المراد، وعين الوداد، والمشار إليه بالإسعاد

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

قيل فى الأزل ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِى ﴾، فكذلك كل رسول مهما طال وقت ابتلائه فهو منصور، وكل من عاداه فهو مقهور، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ﴿١٦١﴾ ﴾

نفى عنه كل ما يكدر رتبته، وكل ما يعكر درجته، فحرره من رق

الأغيار، وأطلق عقاله من سطوات الاختبار، فهو العنصر المفرد الأول، قد سبق الكل فى الأزل.

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

هم درجات، أى أصحاب المقامات، ليس لهم يدٌ فى هذه الدرجات، بل الاصطفاء كان أزلاً، والعالى منهم والنازل كان قدماً، وبرغم كل هذا لا تجرى عليهم أحكام الغيرة من ذلك الدنو والعلو، بل هم إخوانٌ على سرر متقابلين، كما قيل لهم فى نداء الحضرة: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾، ونـاداهم لسان السعادة أزلاً: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾.

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴿١٦٧﴾ ﴾

تحذير للعارف حتى يكون باطنه كظاهره، وأن يكون ظاهره كباطنه وأن تستوى عنده كفتا الميزان، فهو لسان الميزان.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

أى قتلوا سطوة النفس فيهم وتحكمها فى ذواتهم، فلم يكونوا منقادين خلف نفوسهم، بل انقادت لهم النفوس، وذلك عن طريق الجهاد الأكبر، فإن الجهاد الأصغر أقل منه بكثير.

فمثل هؤلاء لا يلحقهم الموت، بل خرجوا إلى عالم الحياة الأكبر، وذلك لكونهم رزقوا بذلك الجهاد الأكبر التحرر الذى به حرروا نفوسهم وخلصوها من الهوى والرق.

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

أى يستشقون لذة القرب من حضرة الله، وهذا يكفيهم، فهو من أكبر نعم الله عليهم.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾

وهم أهل التمكين، الذين لم تعرفهم أيدى التلوين، فلم يكن الاختبار ليزيدهم إلا إيمانا وتمكينا، ولم يكن البلاء ليزيدهم إلا علما بربهم وتسليما، ومن أفراد الحكايات التى تحكى عن الجنيد ﷺ فى مثل هذا المقام، ما حكى عنه أنه حضر سماعا فقام الكل وتواجدوا، وهو جالس لا يتحرك فسئل عن السبب ؟ فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾.

﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

أى فانقلبوا بزيادة مقام التمكين فيهم، حيث لم يمسسهم سوء من ذلك التلوين، فظلوا فى رضا الله قائمين.

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

فمن خاف الله حقا خافه الحدث، وأدبرت عنه العلل، وأما المعلولون فهم السامعون لنداء اللعين.

فالخطاب لمن خلوا من علل الأكوان، ومن لم تَجُرْ عليهم أيدى

الدهور والأكوان.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴿١٧٩﴾ ﴾

أى حتى يغربلهم، وينقيهم من الخبث، فيتميز السليم من المعلول، ويعرف المؤمن من المنافق.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴿١٧٩﴾ ﴾

قلت: فيه دليل للصوفية على من أنكر عليهم عدم معرفتهم بالغيب كالوهابية وغيرهم.

والآية واضحة تمام الوضوح فى أنه سبحانه يجتبى من رسله من يشاء فى اطلاعه على غيبه، ورسله سبحانه كثيرون من غير الأنبياء، قال سبحانه فى جبريل وهو ليس بنبى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾، ولنا فى ذلك رسالة مطبوعة سميناها:" طبقات الأولياء المحمديين الذين شهد له النبى ﷺ أنهم نالوا مقام النبوة ".

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴿١٨١﴾ ﴾

وذلك لغلظ حجابهم، الذى منعهم من مشاهده آلائه فى الأكوان، وعدم تناهى جوده وغناه، فهو كما قال الشيخ الأكبر فى الفصوص: أغنى الكون عنه به، فالكون غير محوج إليه به فافهم.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

فمنهم من أمات نفسه بقتل هواه بيده وهو حيٌ يرزق.

ومنهم من ينتظر إماتة الحق سبحانه له، فينادى حينذاك:

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾،

وليس المحجوب كالمبصر.

وليس المحجوب كالمبعد.

وليس من قيل له: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾.

كمن قيل له: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

وهم من عرفوه سبحانه بالتفكر فيما أنشأه وأعله من المكونات والآيات، وليس من كان فى عين الحضرة وعرفه أزلاً بلا علل، كمن توصل إلى معرفته بالعلل والآيات الدالة عليه، وهو كما قال الأعرابى: البقرة تدل على البعير والسير يدل على المسير، وكما قيل فى إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

أى اشتغلوا بذكره فى كل حركاتهم، فلا تخرج منهم حركة بدون ذكر له سبحانه، كما حكى عن أبى سعيد الخراز ﷺ أنه قال: ما فاتنى تسبيحة بين خرزتين فإذا نسى فتق ما خاطه وأعاد وحكى عن سيدى محمد أبى خليل ﷺ وكان يتجر فى الغلال والحبوب أنه كان يفرغ

جوال الحبوب حبة حبة، ومع حبة كان يذكر الله.

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

أى لا تغرنك الكثرة الكاذبة، ولا تخدعنك مظاهر الأعيان الباطلة، ولا يشغلنك تطاولهم ــ أي الكفار ــ على الأكوان بالسيادة والتقلب فيها، فإن ذلك بجوار نعيم الآخرة هو متاع مؤقت قليل.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾

وهم مؤمنو الباطن من أهل الكتاب، الذين قيل عنهم:

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

أى اصبروا على مجاهدة النفس وصابروا، وأقيموا لذلك رباطاً فيه تجاهدون الشيطان والهوى والنفس، فإن الجهاد الأكبر أهم من الجهاد الأصغر.